فلسفة الجهاد في الإسلام

التحليل الدقيق لغزوات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحتاج إلى عمل مستقل، ومن غزوة بدر إلى غزوة تبوك سلسلة طويلة من الانتصارات العظيمة للدين كدين.. لا للصف كصفّ.. وهذه هي البديهية الأولى التي نسجلها هنا عن غزوات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ باعتبارها نماذج متتالية للحرب في الإسلام، وتتمثل هذه البديهية المراد بيانها في كون غزوات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت انتصاراً بالمعنى القيمي الديني بدءا، وحينذاك فقد ينهزم الصف أو الجيش المسلم لكن الإسلام ينتصر.

كيف ذلك؟!!

في غزوة حنين انهزم المسلمون لمخالفتهم أوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ إن الذي خسر هو الجيش الإسلامي، لا الإسلام، فالإسلام، بعكس ذلك، انتصر..

لنفترض أولاً أن الجيش الإسلامي انتصر في حنين رغم عصيان جزء منه، وهو الرماة، لأوامر النبي صلى الله عليه وسلم (القائد)، فلو أن الانتصار وقع لفهم الجنود أن العصيان أمر سهْل، وأنه لا يقدّم ولا يؤخر، ولذلك سيكون دأبهم في كل غزوة أو أمر بعد ذلك هو العصيان، وهنا يتخلخل أصل وثيق من الإسلام وهو الطاعة للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كرسول، ثم كولي أمر للمسلمين، ثم كقائد حرب، ثم كأمير سفر، وكل ذلك معصية، والنصر مع

المعصية انهزام للمبدإ رغم أنه انتصار دنيوي.

والله تعالى يقول: «فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم».

لذلك كان لابد أن تحدث انتكاسة تبين للمسلمين أن النصر الحقيقي هو طاعة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى ولو صاحَب ذلك هزيمة حربية.

لذلك فإن القيمة الإسلامية انتصرت في حنين حين انهزم الجيش الإسلامي.. انتصرت قيمة «حرمة المعصية ووجوب الطاعة»، وترسخت بعد ذلك في قلوب وأفهام المسلمين.. وهذا هو الفارق بين انتصار المبدإ وانتصار الحرب، والكفار الذين انتصروا في حنين، انتصروا حربياً، لكن دينهم لم ينتصر.

إن التفريق بين نصر ونصر، هو الذي يجعلنا ندرك أن الانتصارات التي يحققها الصف المعادي للمسلمين اليوم، سواء من يهود أو نصارى، انتصارات لا تورث الكثير من الحسرة في حال واحدة، وهي أن تقابلها من المسلمين المنهزمين انتصارات قيمية عقدية، فمثلاً حين يتشبث المسلمون بقيمهم فإنهم ينتصرون قيمياً دائماً، وحربياً أخيراً..

إن إعداد القوة مطلب إلهي، والالتزام به قيمة، تماماً كما أن التزام الرماة بأوامر الرسول صلى الله عليه وسلم في حنين، قيمة.. فإذا ما كان المسلمون يُعِدُّون نزولاً عند الأمر الإلهي «وأعدوا لهم ما استطعتم من القوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم» فإنهم قد يخسرون الحرب عقدين وثلاثة عقود وعشرة، لكنهم أثناء ذلك منتصرون قيمياً. ومن ذلك انتصار التزام الإعداد، وسيكون مآل ذلك امتلاك لأسباب

القوة، وهو ما يجعلهم ينتصرون حربياً على أعدائهم.

إن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان رحيماً حتى بنساء وأطفال المقاتلين المشركين الذين يواجهونه في المعركة، وحتى لو أنه خسر المعركة حربياً، فإن تلك الرحمة كانت انتصاراً لمبادئ الإسلام التي وجدت الحرب من أجلها.

إن أمامنا واقعين:

الأول: أن تكون الحرب خادمة للإسلام ومن أجله.

والثاني: أن يكون الإسلام خادماً للحرب، وتكون الحرب هي الهدف الأكبر والغاية التي يمكن أن يفسد الإسلام ذاته لتحقيق انتصارها.

وهنا يكمن الفارق بين الحرب الإسلامية والإسلام الحربي.

إن الحرب الإسلامية هي «الجهاد» الذي مارسه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخلفاؤه الراشدون وقادته، وهذه الحرب مقدسة فعلاً لما تحمله من قيم.. وهي مجرد وسيلة لنشر هذه القيم.

أما الإسلام الحربي فهو اختصار فظيع للإسلام في جزء منه، وفي ذلك تختفي الجوانب الأخرى، جوانب الرحمة والإحسان والكلمة الطيبة.

ولقد دارت نقاشات طويلة عريضة حول «الجهاد في الإسلام» بين من يرى أن الإسلام لم يشرع الجهاد إلا دفاعاً، وبين من يرى أن الجهاد مبادءة وهجوم.. وبين قائل أن هذه الفريضة رحمة، وقائل أنها همجية يدان القائل بها... وكتب كثير من أهل الأقلام المسلمين دفاعاً وبياناً، غير أن الكثير من تلك الكتابات قصرت عن إصابة المفصل وبلوغ

المرام... ولا شك أن تلك الأسئلة حول الجهاد ما زالت تستفز الكثيرين سواء من المسلمين أو من الغربيين، خاصة بعد ظهور نظرية «صراع الحضارات» لصموئيل هنتينغتون وما دار حولها من ضجة.. وسأحاول هنا أن أُرَكِّب من أحداث وسرايا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قاعدة عامة يرجع إليها مفهوم ومعنى «الجهاد».

فما هو الجهاد في الإسلام؟!! ولماذا شُرِّع؟!!

لنفترض أن الدول الكبرى قررت في أحد مؤتمراتها أن تقوم بحملة تلقيح واسعة لسكان أفريقيا لإنقاذهم من أمراض وأوبئة خطيرة تهدد بقاءهم، وخرج لذلك آلاف الأطباء قاصدين أفريقيا، حاملين الشفاء والرحمة لأهلها، غير أنهم وهم في طريقهم يفاجئهم قطاع طريق يريدون إثناءهم عن غرضهم وردهم على أعقابهم، فهل يستسلم هؤلاء الأطباء وهم يعلمون أن الملايين من المتألمين ينتظرونهم؟ أم أن الواجب يحتم عليهم عدم الاستسلام وبالتالي مقاتلة من وقف بطريقهم ليخلّوا بينهم وبين مقصدهم؟!!

لاشك أن الحق والعقل والمنطق يستدعي الأمر الثاني، لذلك فالحرب هنا ليست مطلوبة في ذاتها، وهو ما يبين خطأ الذين يصفون المسلمين بالدموية والتعطش للقتل.

إن الجهاد بهذا المعنى يصبح مجرد وسيلة إلى غاية كبرى وهي أن تنفتح السبل أمام الدعاة إلى الله لإيصال نور الله إلى عباده في مشارق الأرض ومغاربها.

لذلك فإن الأطباء لم يخرجوا للقتال، إنما خرجوا للذي لا يتم هنا إلا بالقتال، وهو مداواة الموبوئين، لذلك فليس من شأنهم الإجهاز على

الجريح من قطاع الطرق، أو مطاردة فارّهم. كما ليس من شأنهم إيذاء من لم يقف بطريقهم من النساء والأطفال والشيوخ، حتى وإن كانوا من أهالي قطاع الطرق، وحتى وإن كانوا أيضاً منكرين لصلاحية اللقاح وما يمكن أن يبثه في الأجسام السقيمة من الراحة والشفاء.

والذي يتأمل أدب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتوجيهاته لأصحابه في معاركه وغزواته يدرك هذا جيداً، فالمسلمون عليهم واجب إلهي ببلاغ الدعوة إلى العالمين، لذلك فهم يقاتلون فقط من يحول بينهم وبين إيصالها إلى الناس. وقد نهى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في «بدر» عن قتْل الذين أخرجهم الكفار معهم كرهاً.

فقد روى ابن اسحاق عن ابن عياش، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال لأصحابه: «إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه إنما أخرج مستكرها».

إن هناك حروباً من أجل القتل، أما الحرب الإسلامية (الجهاد) فهي من أجل الإحياء، إحياء الناس، والقتل هنا قد يحدث عرضاً في عملية الإحياء، كما أن فلسفة الجهاد تقوم على القتل لتحقيق فائدة الدعوة. وسنعطي أمثلة توضح ذلك:

لنفترض أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بُعث إلى مليون شخص، وكان الحائل الذي يحول بينه وبين وصوله إلى هذا المليون من الناس، عشرة نفر من المشركين.

إن الموازنة هنا تقتضي أحد أمرين:

- إما أن يبقي على حياة العشرة، ويبقى المليون أمواتاً غير أحياء بشركهم، لاتصل الدعوة إليهم.

- أو أن يقتل العشرة لإنقاذ المليون.

ولاشك أن الإسلام يختار الثاني في حال إصرار العشرة، لا على الكفر، فهم أحرار ولهم دينهم، ولكن على الصد والحيلولة بين الرسول وبين المليون شخص الذين أرسل إليهم، فهنا يقتل العشرة لينقذ المليون، فإذا لم يكونوا يصدون، فلماذا يقتلون؟!! إنهم هم أيضاً مجال للدعوة، ويجب أن يستبقوا لدعوتهم، فقد يؤمنون ولو بعد قرن، أو يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله، وهذا نراه جيداً وواضحاً في الطائف.

لنتأمل..

«وقد روى البخاري - بسنده - عن عروة بن الزبير، أن عائشة رضي الله عنها حدثته أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟ قال: لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت - وأنا مهموم - على وجهي -، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب - وهو المسمى بقرن المنازل - فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: أن الله سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم علي ثم قال: يا محمد، ذلك، فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، أي لفعلت، والأخشبان: هما جبلا مكة، أبو قبيس والذي يقابله وهو قعيقعان قال النبي صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده

لا يشرك به شيئا»[٣٨]. هذا إذا كان هناك عشرة أمام مليون..

لنفترض الآن أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد بُعث إلى عشرة نفر فقط لا غير، وكفروا به وجحدوا مثلما فعل قوم نوح مع نوح، فهل يقتل هؤلاء العشرة ويغسل يديه منهم وينهي دعوته إليهم؟!!

إن العشرة هنا هم مجال الدعوة، كما أن المليون هناك هم مجال الدعوة، لذلك لا يجب أن يقتلوا، وهكذا فإن هذا الأمر في الإسلام يقدر بإزالة المفسدة البسيطة لتحقيق النفع الأكبر. والقاعدة هي أن (كلّ ما يعطل الدعوة يجب أن يزال).

ففي المثال الأول يكون الذي يعطل الدعوة هو هؤلاء العشرة، لذلك يجب إنهاؤهم ومحاربتهم فإما أن يتركوا صدهم أو يقتلوا..

أما في المثال الثاني فإن الذي يوقف الدعوة ويزيلها هو قتل هؤلاء العشرة، إذ بقتلهم ينعدم المدعو.. لذلك يجب أن يزال قتلهم كخيار وإلا انعدمت الدعوة.

و إذن فإن قتال العشرة في المثال الأول هو الواجب، كما أن استبقاء العشرة في المثال الثاني هو الواجب، لأن استمرار الدعوة في كلتا الحالتين لا تتم إلا بذلك، وعلى هذا يجب على المسلمين أن يقيسوا مواجهاتهم مع الآخرين.

إن الأصل في الإسلام هو الإحياء لا القتل، لذلك ذهل المشركون مرة لما قال لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «جئتكم بالذبح» فقد حدث أن الكفار غمزوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثلاث

٣٨ ـ صحيح البخاري. كتاب بدء الخلق ١\٤٥٨، مسلم. باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين ٢/١٠٩

مرات فقال في الثالثة: «يا معشر قريش، جئتكم بالذبح» فأخذتهم تلك الكلمة، حتى إنّ أشدهم عداوة يرفؤه بأحسن ما عنده».

لقد كان هؤلاء المشركون يعرفون دعوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لذلك لم يكونوا يتوقعون منه هذه الكلمة لكنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يقصد الصادين الذين يحولون بينه وبين مدعويه، وهذا الذي كان في حياته، صلى الله عليه وسلم، وهو الصادق، فإنه لم يذبح قريشاً، بل أزاح عن طريق الدعوة من عرقلها.

obeikandl.com

خاتمة

النقد الذاتي البناء هو أول المدارج، كما أن توصيف الأزمات هو بداية الحل.. فهل المسلمون يقفون اليوم على الطريق نفسه الذي سار عليه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أم أن أوهامهم رسمت لهم طريقاً آخر سموه طريق الرسول، دون أن يكون ذلك كذلك فعلاً؟!!

إن بين الأصل والظل فرق كبير، فالظل لا ملامح له، لا عينين ولا فم، الظل مطموس، وظل الوردة قد يستوي بظل حجر.

إن غياب التفاصيل ودقائق السيرة وثوابتها وأصولها عبر الوصول إلى فهم أعمق لما قام به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، أمر جعل الكثير من الجماعات الإسلامية لا تأخذ من السيرة إلا اسمها، ومن الاقتداء إلا الإدعاء. وعلى هذه الجماعات إن أرادت أن تعرف هفواتها فعلاً ألا تنظر في المرآة إلى صورتها كما هي العادة، بل عليها أن تقارن هذه الصورة بالصورة التاريخية للجماعة المسلمة في صدر الإسلام.

ولوكان هذا الإسلام عند غيرنا لرفعوا به رؤوسهم، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب من قريش أن تقول كلمة تملك بها العرب والعجم، لكنها كانت ترفض حين تعلم أن هذه الكلمة هي التوحيد. فهل عدم ا لقدرة اليوم على ملك المسلمين للعرب والعجم راجعة إلى ضعف كلمة التوحيد؟

أم إلى المسلمين ذاتهم؟!!

إن على الجماعات الإسلامية أن تعلم أن هذا الدين لا ينتصر بالكثرة

الكاثرة، إنه ينتصر بالثلة الصادقة المتمثلة للتنزيل حقاً وصدقاً، لذلك عليهم ألا تظن أن النصر تأخر، لأن مجموع المسلمين على الباطل والبعد عن الصراط، بل لأنها هي تواكلت على هذا المجموع فتركت حملهما للأمانة بحزم، ولم تعط من نفسها ما يغطي تقصير غيرها، بل استأنست بالكثير غيرها فتقاعست في مراتب الجد إلى أدناها.

وتبقى الأزمة أزمة بُعْد عن التعاليم ليس بُعْد المجموع، بل حتى النخب الإسلامية... فهي بعيدة عن تمثل فكر إسلامي شرعي واقعي للمرحلة.

إن الدين صالح لكل زمان، وتمثُّل السيرة والاهتداء بها واجب، غير أن هناك معالم كثيرة قد تغيرت بين الأمس واليوم، لذلك يكون الإسقاط صعباً، وهو ما يستدعي العودة إلى الاهتمام بقراءة السيرة النبوية قراءة تجعلها نوراً للواقع.

إن الاختلاف بين واقع اليوم والواقع الذي كان في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم جعل الكثير من المسلمين يرحلون بهذا الواقع المظلم إلى أنوار السيرة، وهذا الهروب غير ممكن، لأن الواقع ثابت، أما الذي يجب أن يتحرك فهو قيم السيرة.

والذين يهربون بالواقع المظلم إلى السيرة، يجب عليهم أن يستحضروا السيرة إلى الواقع، وهذا هو الصحيح، ولكي تكون السيرة صالحة للتطبيق في الواقع لابد من إجراء مقابلات عدة بين مسميات قديمة وأخرى حديثة، وإلا فما معنى أن ينصب شرّاح السيرة في العصر الحديث على إعطاء أمثلة عن أبي جهل، وعن الروم والفرس؟!!

ومما لاشك فيه أن المسلمين يريدون الانتصار وإن أهم عوامل النصر

هو تحديد طريق النصر وأظن كما سيرى غيري من العقلاء أنه من شأن قراءة المأثور بهذه الطريقة أن يفرز صورة واضحة لطريق النصر وأبجدياته، صورة لا يختلف فيها اثنان، بدل الصورة الباهتة التي تختلف معالمها من شخص إلى آخر، ومن جماعة إلى أخرى، مما يسبب اختلاف المواقع وتشتت الجهود وبالتالي الضعف والفشل.

إن عملية التنقيح ثم التحقيق للمناط كفيلة في هذه الحال بأن تطرح الرؤية البينة التي تسقط أمامها كل الرؤى الهشة المتذبذبة، وتلك بداية الحل.

إن أمام المسلمين واقعين:

الأول: أن يوقفوا كل التجارب الفاشلة، وأن يجتمعوا حول بناء مؤسساتي يجتمع فيه أقطابهم الفكريون والشرعيون، للخروج بدراسة دقيقة للواقع على ضوء الشرع، تجيب على الأسئلة العالقة، وتجند مجموع الأمة في مسار واحد محدد نحو النصر، وبذلك وحده يكون النصر الذي سيبدؤون في جني ثماره المرحلية منذ خطواتهم الأولى.

الثاني: أن يبقوا على ما هم عليه من التواكل والتنافر، والضبابية في الرؤية والاعتباطية في التجريب، وآنذاك يجب أن يعلموا أن أمامهم عقوداً أو قروناً أخرى يعيشون فيها التيه والضعف والشدة، وفي هذه المرحلة ستضيق عليهم الحلقة أكثر فأكثر حتى تصل بهم إلى اعتقاد وجوب التغيير وإلى الاعتراف بالخطأ، وآنذاك تكون الخسارة أشد فداحة، وضياع عقود أخرى أو قرون ليس أمراً بسيطاً خاصة مع حسن استثمار عدو الأمة لعنصر الوقت.

إن السيرة ليست واقعة تاريخية خاصة، إنها مثال صالح لكل زمان

ومكان، لذلك يجب الاستئناس بها في الواقع الحديث حسب معطيات الواقع الحديث الذي فيه إسرائيل وأمريكا، وغير ذلك من أركان وقواعد اللعبة التي تحكم الواقع.. ولقد حاولتُ قدر المستطاع أن يكون هذا الكتاب إضاءة ونموذجاً، مجرد نموذج لقراءة مؤسساتية جديدة ودقيقة للسيرة النبوية، وبذلك فقط تردم الفجوة بين الواقع والمثال النظري في السيرة، وهو ما يسهّل عملية الإسقاط على الواقع، ويؤمِّن للمسلمين مساحة واسعة من الهدي، يكون موجههم وقدوتهم، بل قائدهم فيها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولرَدْم هذه الفجوة كتبنا..

نسأل الله السداد والتوفيق والقبول.

المراجع

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ الفصول في سيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير ـ بتحقيق وتعليق: محمد العيد خطراوي ومحيي الدين متو ـ دار الكلم الطيب ـ دمشق ـ بيروت. الطبعة التاسعة ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

٣ ـ الرحيق المختوم لصفي الدين المباركفوري ـ دار القبلة للثقافة الإسلامية (جدة) ـ مؤسسة علوم القرآن ـ بيروت. الطبعة الخامسة ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

٤ ـ مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ـ لمحمد بن عبد الوهاب ـ وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد. ١٤١٨هـ.

٥ ـ صورة عتيقة ـ إيزابيل الليندي. ترجمة صالح علماني. دار المدى ـ دمشق. ٢٠٠١م.